

الفصل الثالث

ابنة البطريق

لم يَطِب الرومُ نفسًا بسياسة القيصر جوستينيان الثاني، ونقموا منه^١ أن ضيَّع عليهم الفرصة المتاحة لاسترداد سواحل الشام في سنة ٧٠ للهجرة، بعدما وطئتها أقدامهم، وقاربوا أن يملكوها ويُوغَلوا في بلاد العرب، لا يكاد يدافعهم أحدٌ من جند الخليفة المنهوك القوة في قمع الفتن الناشبة في الأمصار الإسلامية، لقد كان عبد الملك أعرف بنفس هذا القيصر وأسدُّ منه سياسة، فطلب إليه الصلح على مالٍ يؤديه إلى الروم كلَّ جمعة، فتحلَّب لُعابُ القيصر إلى ذهب بني مروان، وأجاب الخليفة إلى ما طلب، ولكنه لم يَنعَمْ بهذا السِّلْم الذهبِي طويلاً، فما هو إلَّا أن فرغ عبد الملك مما كان فيه حتى منع القيصر ما كان يؤدِّي إليه من مال، وجَهَّزَ الجندَ في البر والبحر صائفة وشاتية للغارة على الثُّغور الرومية ...

وكان قادة جيش الروم أشدَّ سخطاً على القيصر لهذه الخيبة، فثاروا به وقبضوا عليه، فجدعوا أنفه^٢ ونفوه إلى بلاد القريم، ثم راحوا يتنازعون العرش فيما بينهم، فيلونه قائداً بعد قائد، وقيصرهم في منفاه مجدوع الأنف، منكسر النفس، لا يكاد يملك لنفسه أمراً، والصوائف العربية ما تزال تُغير على الثغور والسواحل، فتصيب من الروم مقاتل، وتحمل أسارى وسبايا وولداً...^٣

^١ غضبوا عليه.

^٢ قطعوا أنفه.

^٣ السبايا: جمع سبيّة؛ وهي المأسورة، والولدان: الأطفال المأسورون.